لمحة عن ديار فحص مدينة الجزائر في العهد العثماني.

سامية بن قويدر

جامعة الجزائر2

مقدمة:

عرفت مدينة الجزائر في العهد العثماني تطورا وازدهارا كبيرا، جعلها ترتقي في ميادين مختلفة، فقد كان لقدوم العثمانيين إلى هذه المدينة، ووفود الموريسكيين الذين نقلوا معهم موروث الأندلس، والأوربيين الذين قدموا كأسرى أو بحارة للعمل في أسطولها البحري القوي، الذي أعطاها شهرة واستقرارا، وجعلها تتزود بأجود المنتجات العالمية، مما أدى إلى نشوء حركة عمرانية كبيرة ترجمت هذا التطور والازدهار. ساهمت طبيعة فحص مدينة الجزائر الخلابة كذلك، ووفرة المياه به وخصوبة أراضيه، وثراء ملاكه وشساعة مساحة جناته، في قيام نمط معماري خاص رائع متميز بالتنميق والزخرفة، والتفاعل مع المحيط من حدائق ومياه وغيرها، عكست التأثير الحضاري الأندلسي والعثماني وكذلك الأوربي على عمارتها المحلية، الذي برز في العديد من عناصرها المعمارية، في عهد وُصفت

فيه مدينة الجزائر كأهم مركز حضاري في البحر الأبيض المتوسط، حيث وصلت إلى أقصى درجات رقيها وتطورها.

من هذا المنطلق فضلنا الحديث عن عمارة الفحص وأراضيه، لفهم هذا النمط المعماري ومعرفة مدى التطور الذي لحقت إليه الجزائر باعتبار عمارته خاصة بالأثرياء. للوصول إلى ذلك يجب معرفة ماذا نعني بالفحص أولا وكيف كانت أراضيه وأقسامه، والنظام الإداري التابع له، ومن ثم معرفة كيف كانت ديار الفحص، طبيعتها وميزتها، والاختلاف الكامن بينها وبين منازل المدينة، وغيرها من العناصر التي سنتناولها فيما يلي:

1-أراضي الفحص:

لفهم عمارة الفحص يجب فهم النطاق الذي كانت مبنية فيه لمعرفة خصوصيتها بشكل أفضل، لذلك سنحاول فيما يلي التركيز على أراضي الفحص بتعريفها أولا، وتحديد مجالها وأقسامها والنظام الذي كانت خاضعة له. امتدت أراضي الفحص خارج أسوار مدينة الجزائر (اللوحة الفنية:1)

الواقعة على دائرة عرض 36،47° شمالا[1]، وعلى خط طول 3،3° شرقا من خط غرينيتش.[2]

تمثلت هذه الأراضي في ضواحي المدينة والأرباض المحاذية لها خارج الأسوار مباشرة[3]، وتمتد خلفها الأحواش ومن بعدها تأتي الأوطان. يكمن الفرق بينها في أن أراضي الفحص عبارة عن ملكيات خاصة، يملكها أشخاص معينون وفق عقود ووثائق رسمية، على عكس الأقاليم الأخرى القائمة على نظام الأراضي المشاعة، كذلك في مساحة الأراضي وفي توزيع الكثافة السكانية، التي تقل كلما ابتعدنا عن أسوار المدينة.

أ-مصطلحات متعلقة بها: لفهم الفحص بصفة جيدة يجب فهم بعض المصطلحات المستخدمة للدلالة عليه والتي تأتي على رأسها تسمية "الفَحْصْ" التي اشتقت من البسط والكشف، كونها أراضي مستوية

---

[1] Shaw(T.) ; voyage dans la régence d'Alger, rad . De J.Mac Earthy,Marlin,Paris,1830,p. 288

[2] حليمي (عبد القادر)، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، ط. 1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر ،1972، ص.33.

[3] دي فولكس (ألبير)، خطط مدينة الجزائر من خلال مخطوطات دي فولكسو، الأرشيف الوطني العثماني، ترجمة وتعليق مصطفى بن حموش وبدر الدين بلقاضي، المجمع الثقافي أبو ضبي، 2004م، ص279. مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:54، الوثيقة:45.

وممتدة[1]، وهي نفس التسمية المتداولة في اللهجة المحلية، عدا طريقة نطقها فقط حيث أطلق عليها أهل الفحص "فُحْصْ" كونهم يميلون إلى ضم الحرف الأول من الكلمات.

ارتبطت تسمية أراضي الفحص بمصطلح **جَنة**، التي تعني المكان المستور لتكاثف أشجاره وتضليله بالتفاف الأغصان، وجمعها جِنَانْ. يُشترط في الجنة أن تحتوي على أشجار النخيل والعنب، وإن لم يكن فيها ذلك فهي حديقة[2]. أُطلق هذا المصطلح على الأراضي المزروعة والمروية بشكل جيد فقط، حيث أُطلقت تسميات مختلفة غير الجنة على الأراضي المهملة بالفحص مثل **الغيابة**، التي نجد لها ذكرا في وثائق العهد العثماني كما يلي: «...الجنة التي ضارت الآن غيابة...يدفع الغيابة لمن يمهدها ويغرسها."[3] إضافة إلى تسمية جنة نجد الجْنِينَة التي تدل على الجنة الصغيرة، حيث ورد في إحدى الوثائق ما يلي: «...الجنة الكاينة بفحص...الجنينة الصغيرة.."."[4]

استخدم مصطلح **جْنَان** كذلك، والذي على الرغم من أنه مأخوذ من اللغة العربية في الأساس، إلا أنه استخدم للدلالة على الحديقة في بعض

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، ج10، ط3، دار إحياء للتراث العربي، بيروت، لبنان، 1993م، ص193.

[2] خياط(يوسف)، لسان العرب المحيط، لابن منظور، ج2، دار الجيل، لبنان، 1988م، ص518.

[3] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:54 ،الوثيقة:45.

[4] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:54 ،الوثيقة:73.

الوثائق الخاصة بشخصيات عثمانية، نذكر منها ما ورد في أحد عقود المحاكم الشرعية المؤرخ بشهر أكتوبر سنة 1695م الذي ورد فيه ما يلي: «...آمنة بنت مصطفى بن محمد التركي... في الجنان..» [1]

مع العلم أن المصطلح المستخدم في اللغة التركية هو البهجة(bahçe) أي الحديقة [2].

من المصطلحات المستخدمة للدلالة على الجنة كذلك مصطلح **بحيرة** المشتقة من كلمة بحر الريف، أما البحيرة فهي تصغير لكلمة بَحْرَة، التي تعني الفجوة من الأرض وكذلك الوادي الصغير والروضة العظيمة مع السعة والأوقة يستنقع فيها الماء[3]، نظرا لوفرة المياه لذلك نجد أن معظم أراضي الحامة كان يطلق عليها بحاير –بحائر جمع بحيرة–، لأنها كانت عبارة عن مستنقعات مشبعة بالمياه، استصلحت فيما بعد واتخذت للزراعة.

ب–حدودها: لم يكن لأراضي الفحص حدود واضحة، حيث كانت ممتدة على مساحات واسعة في فترات الرخاء ومنحصرة أوقات الأزمات، فخلال القرون الثلاث الماضية من تاريخ الجزائر العثمانية، تغير مسار النشاط الاقتصادي، الذي كان معتمدا على القرصنة البحرية، التي وفرت غنائم

---

[1]– مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:44 ،الوثيقة:92.

[2] أطلق إسم بهجة على مدينة الجزائر تشبيها بالحديقة نظرا لخصوبتها، ومعناه في الأساس البستان الصغير في اللغة الفارسية.

[3] مهنا (علي)، تهذيب لسان العرب، لابن منظور، ج.1، ط.1 ، المكتب الثقافي لتحقيق الكتب،لبنان،1993، ص. 25.

كثيرة في الفترات الأولى من هذا العهد، بعد ذلك وفي فترات لاحقة أبرمت الجزائر معاهدات مع مختلف الدول، التي نتج عنها الحد من النشاط البحري، مما أدى إلى الاستعانة بالنشاط الزراعي لمواكبة التطورات الحاصلة، وبالتالي تزايد الطلب على أراضي الفحص. لقد تباينت تقديرات مساحة أراضي الفحص واختلف تحديد إمتدادها خارج أسوار مدينة الجزائر، فمنهم من قدرها في بداية العهد العثماني بـ 16 فرسخ أي ما يقارب 64 كلم [1]، وكذلك بـ 18 فرسخ بما يعادل 72 كلم [2]، أما في أواخر العهد العثماني بالجزائر فقد قدرت بامتداد يقارب حوالي 12 كلم خارج الأسوار، بمساحة تعادل 150 كلم^2 [3]، وفي تقديرات أخرى بـ 100 ألف ميل مربع[4]، وهي تقديرات تقريبية أُعطيت من طرف رحالة أوربيين، كانت خيالية في بعض الأحيان سواء فيما يخص المساحة أو عدد المزارع، مما صعب معرفة امتداد أراضي الفحص بشكل جيد.

---

[1] Avrieux (Chevalier de) ; Mémoire du Chevalier d'Arvieux, Mise en ordre par. R.P.J. Baptiste Labat,J.B. Delespine,Paris,1735, p. 234

[2] Dan (P.) ; Histoire de barbarie et ses corsaires des royaumes, Ed. 2, Pierre Recolet, Paris, S.D., p.87.

[3] سعيدوني (ناصر الدين)، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر، ج. 2، م.و.ك، الجزائر، 1988، ص.141.

[4] شالر (وليام)، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824،ترجمة. إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت ،الجزائر،1982، ص. 106.

جـ-أقسامها: انقسمت أراضي الفحص إلى ثلاث أقسام رئيسية وفقا لأبواب المدينة البرية الثلاث، المنفتحة على نفس العدد من الطرق المرتبطة بأراضي الفحص ومنها إلى كامل أنحاء البلاد(شكل:1). تمثلت هذه الأقسام في فحص باب الوادي، الذي نذكر من أهم أقسامه السد وأبي النور، والرملة والمنية وواد قريش[1]، وأقنان وقامة الفول وزغارة وبوزريعة وعيون السخاخنة، وتاقليت وبيرطريلية[2]. أما فحص باب الجديد فتضمن الآبار[3]، وعيون حيدرة وبير الدروج وعين بن عطية وبرج حسن باشا، وسيدي يحيا الطيار والقادوس وأجنان، وعين الزبوجة ووادي لكحل، ووادي الرمان وبني مسوس. تضمن فحص باب عزون بدوره تاجرارت وعين الربط وتلاواملي[4]، وعين الأزرق والحامة وعين الرمانة وكهف النسور، وبير مراد رايس وبئر خادم والقبة وتقصراين[5]، وواد خنيس[6] وغيرها من الفحوص. عُرِّفت الجنائن في الوثائق الهامة في العهد العثماني نسبة إلى

---

[1] سعيدوني (ناصر الدين)، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني،ط. 1، دار الغرب، بيروت، 2000،ص. 394

[2] المعروف ببيرطرارية.

[3] المعروف بالأبيار.

[4] المعروف بتليملي.

[5] ناصر الدين(سعيدوني)، المرجع نفسه، ص. 395.

[6] المعروف بواد كنيس.

الفحص التابعة له، مثلما ورد في هذه الوثيقة : «...الجنة الكاينة بفحص...الجنينة الآبار خارج باب الجديد...» [1].

د- نظامها الإداري: خضع الفحص إداريا في العهد العثماني لسلطة آغا العرب أو الصبايحية –أي الفرسان–، من صلاحياته حكم أراضي الفحص وأوطان متيجة، ينوب عنه نائب يدعى بقائد الفحص[2]، والذي يعتبر كحاكم مدني ضمن الحكومة المحلية[3]، مثله مثل شيخ البلد المكلف بحفظ النظام بالمدينة، لكن تضاف إليه مراقبة قناطر المياه والعيون بالفحص [4]، [4]، كما تساعد شرطة الأعياد قائد الفحص على بسط نفوذه وحفظ النظام بالمنطقة.

هـ–جناتها: تميزت جناين الفحص بغطائها النباتي الكثيف نظرا لخصوبتها الشديدة ووفرة المياه بها، سواء السطحية أو الباطنية، التي كانت كافية لدرجة تزويد المدينة بالمياه عبر قناطر الماء، كقناة الحامة وباب الوادي وكذلك حيدرة. وُصفت هذه الأراضي على أنها من أجمل المناطق في

---

[1] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:06، الوثيقة:19.

[2] سعيدوني (ناصر الدين)،المرجع نفسه، ص. 147.

[3] شالر (وليام)، المصدر السابق، ص. 77.

[4] بن حموش (مصطفى)، المدينة و السلطة في الإسلام.نموذج الجزائر في العهد العثماني، ط.1، دار البشائر، دمشق، 1999، ص. 150

العالم (اللوحة الفنية:2)، فهي متميزة بمناخها المعتدل وجمال موقعها[1]، المتمثل في سلسلة من الروابي المتدرجة بصفة متماثلة نحو ساحل البحر، والمتقاربة في الارتفاع بشكل عام[2]، عدا جبل بوزريعة[3] الذي يعتبر أعلى منطقة بالفحص. تمثلت أراضي الفحص في الغابات والأحراش، والجنان التي تعتبر ملكيات زراعية خاصة، مخصصة لزراعة البقول والخضر ومختلف أشجار الفواكه وغيرها[4]. اشتهر تسييج الجنان في العهد العثماني بسياج طبيعي متمثل في أشجار التين البربري، المعروف باللهجة المحلية بكرموس النصارى أي التين المسيحي أو النصراني –هذه التسمية راجعة إلى الأسرى المسيحيين العاملين بمزارع الفحص كونهم أول من بدأ بأكل هذه الفاكهة على الأرجح–[5]. يرجع سبب اختيار هذه الأشجار للتسييج كونها سميكة وشديدة التشابك، وكذلك

---

[1] شالر (وليام)، المصدر نفسه، ص. 106.

[2] Avrieux (Chevalier de) ; Op. Cit, p. 234.

[3] نظرا لارتفاع هذا الجبل نجد من بين الفرضيات التي تتناول أصل تسميته عدا الزريعة فرضية تسمية بوزالريح ، المتكونة من قسمين"بوز" التي تعني الجليد باللغة التركية، و"الريح" باللغة العربية ،أي أن رياحها باردة جدا لدرجة التجمد فهي أعلى منطقة بالجزائر العاصمة.

[4] Haëdo (Diego de) ;Topographie et histoire générale d'Alger,Trad.Monnereau,G.A.L,Alger,2004, p.230

[5]Tassy (Laugier de) ; Histoire du royaume d'Alger, Loysel, France, 1992,P. 124

لاحتوائها على أشواك كثيفة، بالإضافة إلى أنها سريعة التكاثر، فأوراقها تبدأ بالتجذر بعد سقوطها على الأرض[1].

2-ديار الفحص: لن نتطرق إلى العمارة الجزائرية في العهد العثماني في هذا العنصر، بل لخصوصية عمارة الفحص نمطها ومميزاتها، وشبهها واختلافها عن عمارة المدينة. خُصصت هذه العمارة للإقامات الصيفية لأثرياء المدينة، لذلك نجدها محتوية على مجمع سكني كامل داخل الجنة، بحديقة جميلة تتلاءم والتخطيط العام لهذا القسم. هذه العمارة وعلى الرغم من كونها عمارة ريفية، إلا أنها تميزت بالبذخ والتنميق في الإنجاز، لدرجة يمكن تشبيهها بالأكشاك التركية (köşkler) في طريقة الزخرفة والبذخ، واستغلال الأراضي الزراعية وسط الغابات، وبملاك أثرياء تميزوا بمناصبهم المرموقة في اسطنبول، لكننا لم نلحظ نفس التأثير بالنسبة لمباني اليلي (yalı)المنجزة على سواحل البوسفور، ربما يرجع ذلك لسواحل مدينة الجزائر المكشوفة للرياح القوية وهجوم الأعداء.

أ-تسميتها: جهزت كل جنة من جنان الفحص بديار سكنية خاصة أطلق عليها عدة تسميات من أهمها "**البرج**" الذي يعني المنزل الكبير

[1] Morgan (J.); Histoire des Etats Barbaresques, Trad.de l'anglais, Tome.2, France, 1755, P. 307.

المعزول[1]، الذي ورد ذكره في العديد من الوثائق الجزائرية في العهد العثماني، نذكر منها وثيقة ذكرت: «... وضاعت الجنة وأهوى **برجها** للسقوط...» [2]. ترجع تسمية البرج **بالبرج الأبيض** لكونها مبيضة بالجير. كذلك يمكن أن نجد تسمية هذه الديار مقتصرة على **البياض** فقط، لنفس السبب السابق كما يلي:«...الأرض المشتملة على... وبياض..» [3].

أطلق الرحالة الأجانب عدة تسميات على عمارة الفحص نذكر منها ديار المزارع [4]، والبيوت الريفية المشابهة لما يوجد بمرسيليا[5]، والقصور الريفية الصغيرة [6]، والمصرية[7] التي تعني مزرعة، وهي بشكل عام المنزل الريفي الصغير، أو الغرفة الصغيرة المخصصة لسكن العبيد

---

[1] Marcisse(F.)، Livre d'or de l'Algérie, Tome.2, Challamel et Cie éditeurs, Paris,1889, P.672.

[2] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة.54، الوثيقة.44.

[3] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:148، الوثيقة:25.

[4] Dan (P.) ;Histoire de barbarie et ses corsaires des royaumes, Ed. 2, Pierre Recolet, Paris,S. D,P.87.

[5] Peyssonnel (J.-A.) et Desfontaines (R.) ; voyages dans les régences de Tunis et Alger, Tome.1, Libraire de Gide, Paris, 1838, P. 461

[6] Bardoux (J.) ; «La vie d'un consul auprès de la régence d'Alger» ،in: R evue africaine, Tome: 65, 1924, P. 274

[7] Tassy (Laugier de) ; Op.cit, P.123

المنفصلة عن المنزل[1]. استخدم مصطلح المصرية في الجزائر للدلالة على المكان المنزوي والمعزول، أين توضع الأشياء والأدوات وغيرها[2]. لتأكيد استخدام هذا المصطلح في هذا النوع المعماري، وبالخصوص لكونها واقعة في أراضي زراعية يشتغل بها العديد من الأسرى، استعنا بإحدى الوثائق التي ذكرت المصرية كما يلي:«...المصرية التي أسفل...» [3]، مما يؤكد أن المصرية المصرية هي ملحقة داخل دار الفحص وليست هي مجمع الدار بكامله.

ب- مقارنتها بمنازل المدينة: صممت ديار الفحص بشكل يجعل الحياة أكثر لطفا وراحة بها، كونها خُصصت للإقامات الصيفية لأثرياء المدينة[4]، حيث أخذت بعين الاعتبار التقليل من درجة الحرارة في الفراغات الداخلية، وكذلك التهوية التي تعتبر أساسية فيها، واستغلال العناصر الطبيعة مثل النباتات والأشجار والمياه الوفيرة قدر الإمكان، لمنح الهدوء والسكينة وإضفاء البهجة والراحة معا لسكانها، بعيدا عن ضجيج المدينة والرتابة اليومية. نلاحظ أن هذه الديار كانت منمقة وغاية في

---

[1] Lespés. (R.) ;Alger.étude de géographie et histoire urbaines,Félix Alcan,Paris,1925 , P. 187

[2] Missoum. (S.) ; Alger à l'époque ottomane, Edisud, Alger,2003, P. 225

[3] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:25، الوثيقة:16.

[4] Marion. (V.B.), Alger et ses peintres 1830-1960, Paris-Méditérranée, France, 2000, p. 203.

الروعة، سواء في تخطيطها الذي كان يتم على أراضي واسعة، أو في مواد البناء الباهظة المستوردة في الغالب، كونها كانت حكرا على أغنياء المدينة. لذلك نجد ديار الفحص مختلفة عن منازل المدينة المبنية ضمن حيز مكاني ضيق، تحيط بها المنازل المجاورة من كل النواحي، وترتبط بها الأزقة الضيقة (اللوحة الفنية:3) والمتعرجة[1]، أين يملك السكان حق حيازة الضرر وحق الارتكاب وتفادي ضرر الكشف، وغيرها من الضوابط المفروضة في عُرف البناء بالمدينة، والتي لا نجدها في الفحص، الذي يتميز بحرية تخطيط المنازل نظرا لشساعة الحيز البنائي.

من العناصر المعمارية الهامة التي تبرز الاختلاف بين عمارة المدينة والفحص نذكر الكشك، المتمثل في البروز الخارجي لقُبُو ديار الفحص، الذي يكون بشكل شرفة مغطاة ومغلقة، حيث يبرز الجزء المركزي للجدار الخارجي للغرف نحو الخارج بنوافذ واسعة مطلة على الجهات الثلاث من البناء في شكل مقدمة بناء[2]، على عكس هيكل القُبُو الخارجي المعروف بالروشن في المدينة، الذي يبرز في جدار الطوابق

[1] Golvin(L.) ;palais et demeures d'Alger à la période ottomane,I.N.A.S, Alger,2003,p.127.

[2] Depaule (J.C.) et Arnaud (J.L) ; A traver le mur, Aubin, France, 1985, P. 290

العلوية على الطريق دون أعمدة لحمله، للاستفادة من مساحة إضافية نحو الخارج[1].

على الرغم من روعة هذه الديار إلا أنها لم تختلف كثيرا عن منازل المدينة، حيث حافظت على نفس النمط والتخطيط الكلاسيكي الخاص بها، الذي يتميز بالفناء المربع المركزي، المُحاط بالغرف المسبوقة بالأروقة المرتكزة على العقود الحدودية المنكسرة المتجاوزة من كل الجهات الأربع، وكذلك في إنجاز السقيفة الداخلية[2] وغيرها من العناصر المعمارية الموجودة بالمسكن، والتي يمكن معرفتها من خلال مقارنتها بمنزل المدينة[3]، وحتى الفراغات التي يُعتقد أنها كانت حكرا على المدينة فقط مثل العلوي، المعروف بالعلية المتمثلة في المنزل الصغير، الذي يتميز بغياب وسط الدار والطابق الأرضي، نظرا لكونه مبنيا فوق سقيفة أو مقر تجاري أو إسطبل وغير ذلك، ويعتبر وجود السطح أساسيا في بنائه[4]، حيث يُبنى بشكل متطاول نحو الأعلى إلى غاية السطح، ولذلك يسمى بالعلوي. يتميز هذا المبنى باحتوائه على غرفة أو غرفتين أو ثلاثة، تكون

---

[1] محمد رزق (عاصم)، معجم مصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية،مكتبة مدبولي، مصر،2000.، ص. 126

[2] Marçais (G.) ; L'architecture musulmane d'occident. Tunis. Algérie. Maroc. Espagne. Sicilie,Arts et métiers graphique, Paris, 1954, p. 445

[3] Marçais (G.) ;Ville et campagnes d'Alger, Tell,Blida.Algerie,2004, p. 32.

[4] Shaw(T.) ; Op. Cit, P. 100

منتظمة بشكل أساسي حول السلم، الذي يعتبر كمدخل لها. في غياب وسط الدار ينار العلوي بواسطة بئر ضوئي أو نوافذ مطلة على الخارج[1]. لتأكيد وجود العلوي في عمارة الفحص استعنا بوثيقة خاصة بأحد جناين الفحص في العهد العثماني، ذكرت العلوي كما يلي:«... التي أسفل العلوي ...» [2].

طبقا لذلك ونظرا لما تم ذكره من تشابه واختلاف في تخطيط عمارة الفحص والمدينة، يمكن ملاحظة نوعين من ديار الفحص نوع أول يعتبر نقلا عن منازل المدينة إلى الفحص، ببعض التفاصيل المقاربة له، و نوع ثان مختلف عن منازل المدينة، متميز بالجرأة في إدخال ابتكارات جديدة عليه، باستغلال كل العناصر الطبيعية المحيطة والتفاعل معها[3].

جـ-تخطيطها: لمعرفة عمارة الفحص بشكل أفضل فضلنا الحديث عن أهم المباني والعناصر المعمارية الداخلة فيها، والتي تأتي على رأسها **أسوارها الخارجية** العالية، التي تعطي الانطباع بأنها برج، كونها مبنية ببناء مصمت دون زخارف زائدة[4]. ربما أقيمت بهذا الشكل لإضفاء عامل المفاجئة، فالداخل إلى هذه الديار ينبهر بهذه الأسوار العالية والبسيطة،

---

[1] Missoum (S.) ; Op. Cit, P. 211

[2] مركز الأرشيف الوطني، الرصيد العثماني، سلسلة المحاكم الشرعية، العلبة:25، الوثيقة:16.

[3] Golvin(L.) ;palais et demeures d'Alger à la période ottomane,I.N.A.S, Alger,2003,p.127.

[4] Marion (V.B.) ; Op. Cit, p. 204.

التي تخفي مجمعا سكنيا غاية في الروعة والجمال بداخلها (اللوحة الفنية:4).

تنفتح هذه الأسوار العالية عبر **باب خارجي** يُفضي إلى المجمع السكني من خلال **الفناء خارجي**، يكون في الغالب مبلطا بالرخام، ومزينا في الوسط بنافورة ماء (اللوحة الفنية:5)، ومظللا بعريش من الكرم. تُطل عليه الواجهة الرئيسية للمسكن–التي يجب أن تُطل على البحر كذلك–، وينفتح عليه **الرواق الخارجي**[1]، الذي يقع في أحد جوانب الحديقة بعدة ممرات مسقوفة بها أماكن للراحة[2]، وغالبا ما يكون هو السقيفة البرانية، لأن استقبال الضيوف يكون بالخارج للتمتع بجمال الحديقة والتنعم بالنسيم المنعش، لذلك يُلاحظ غياب السقيفة داخل المسكن أو تواجدها بشكل مصغر كونها غير ضرورية في هذا النوع من المباني[3]، حتى أنها تكون مضافة إلى مخطط المسكن في بعض الأحيان[4]، أما فيما يخص **المسكن** (شكل:2) فواجهاته ذات نوافذ عديدة وواسعة لتأمين التهوية في أيام الصيف الحارة، كذلك لكونه بعيدا عن الديار الأخرى، خصوصا مع انفتاح هذه المساكن نحو الداخل على وسط الدار، مما يولّد

---

[1] Marçais (G.) ; Op. Cit, p.33

[2] Marçais (G.) ; l'architecture… Op. Cit, p. 445.

[3] Golvin (L.) ; Op. Cit, p. 172.

[4] Ravéreau (A.) ; Op. Cit, p. 105

تيارا كبيرا للهواء. سُيِّجت هذه النوافذ بشباك حديدي توجد أسفله وأعلاه صفيحتين من الأردواز. تتميز واجهات هذه المساكن بمقدمة البناء التي تبرز عن البناء، وتتقدمه انطلاقا من الأرض، وتعلوها شرفة بثلاثة نوافذ من الجهات الثلاث. يتمثل هذا البروز البنائي في البروز الخارجي لقُبُو الغرف مما يجعله بشكل جناح مربع من الداخل (اللوحة الفنية:6)، وهو الأقرب لمصطلح قُبُو كونه متميز بالقبة التي تُسَقفه من الأعلى في الطابق العلوي منه. يكون الجزء السفلي من مقدمة البناء في الواجهة الرئيسية للمسكن فيها عبارة عن كشك يتقدم مدخل المسكن بثلاث عقود(اللوحة الفنية:7)، يحل محل الكُنة –أو الظلة– في المدينة[1].

يتميز الطابق الأرضي للمسكن باحتوائه على غرف خاصة بالخدم، ومخازن لتخزين المحاصيل الزراعية، ومطبخ يقع في أحد أطراف المسكن، الذي يرتبط بالفرناق في أحد أركانه من الجهة الخارجية، لتأمين مدخنة مُوحدة للمطبخ والحمام معا[2]، أما السطح فيتم الخروج إليه عبر فتحة ضيقة–متمثلة في باب السطح– تعلوها قبة

[1] Marçais (G.) ; villes… Op. Cit, p. 33.

[2] علي خوجة (علي)، " فحص الجزائر وجنائنه "، القصبة. الهندسية المعمارية والتعمير، رياض الفتح، الجزائر، 1984، ص. 42

صغيرة. لا تحتوي هذه الفتحة على الباب في الكثير من الأحيان، لتأمين تهوية مستمرة نحو داخل المسكن عبر السلم[1].

تحتوي ديار الفحص كذلك على **الدويرة**، التي تعتبر ملحقة بالمسكن ومستقله عنه، سواء أكانت ضمن حيطانه أو منفصلة عنه[2]. يُختار موقع الدويرة في ديار الفحص بعناية كبيرة لأسباب جمالية، لتوفير منظر جميل ومريح، ولأسباب مناخية كذلك لتأمين التهوية، لذلك تكون الدويرة منفتحة بصفة واسعة وكبيرة[3]. تخصص الدويرة لمبيت الضيوف في الغالب، وتكون أصغر من المسكن، لذلك تُدعى بالدويرة تصغيرا لكلمة دار.

يحتوي المجمع السكني بالفحص على **حديقة** تعتبر من أساسيات تخطيطه، تُزرع بمختلف أنواع الأشجار والورود، وتكون مهيأة بشكل متناسق لإعطاء جمالية للمجمع السكني. تميزت حدائق ديار الفحص بحراثتها الجيدة، التي كان يعمل عليها العديد من الأسرى المسيحيين، وكذلك بإنتاجها محاصيل مختلفة ذات جودة عالية كذلك[4]. يُطل على هذه الحديقة **الرياض** (اللوحة الفنية:8) الذي يقع في أحد أطرافها، حيث تطلق هذه التسمية على المباني المنفتحة على الحديقة

---

[1] نفسه، ص. 44.

[2] شالر (وليام)، المصدر السابق، ص.95.

[3] Marçais (G.) ; Op. Cit, p.33

[4] Broughton (E.) ; Six years residence in Algiers, Saunders and Otley, London,1839.، P.292

فقط[1]. يتميز هذا البناء بتخطيطه الهندسي الجميل، المحتوي على مسالك للعبور تكون مرتفعة عن مستوى التراب، وقنوات مائية لري الأشجار والأزهار [2]، حيث يُشترط في بناء الرياض انجازه على أرض خصبة كثيرة الخضرة، ومحتوية على كميات وفيرة من المياه تُستخدم بصفة غزيرة، حيث لا يسمى الرياض رياضا إلا بوجود ماء وفير[3].

يتميز رياض الفحص بشكل عام بكونه حديقة داخلية متمثلة في صحن، يكون مخفيا لإضفاء عامل الإثارة عليه، ويكونه محددا من جهاته الأربع أو من جهة واحدة ببناء، لكن في التخطيط الأكثر شيوعا يكون التحديد من الجهتين، برواق مرتكز على عقود حدودية منكسرة متجاوزة محمولة على أعمدة. تكون معابر الرياض مبلطة بالآجر أو الزليج، كما تُزين نقاط تقاطعها في بعض الحالات بفسقية أو حوض مائي[4]. يُستغل هذا النمط المعماري للجلوس والاستمتاع بالطبيعة، وإقامة الحفلات وجلسات الطرب[5]، وما يزيده رونقا وجمالا هو إشرافه على حوض مائي يكون عمقه على حسب دوره، فإن كان عميقا تكون وظيفته إضفاء جمالية

---

[1] باكار (أندريه)، المغرب و الخزف التقليدية الإسلامية في العمارة،ترجمة. سامي جرجس، المجلد. 1، دار أتولي 74 للنشر، فرنسا، 1981، ص. 89.

[2] نفسه، ص. 90.

[3] خياط (يوسف)، المرجع السابق، ص. 1255

[4] Marçais (G.) ; Op. Cit, P. 404

[5] على (علي خوجة)، المرجع السابق، ص. 46

على الرياض، وري مزروعات الحديقة كاملة، حيث يقرب دوره من دور العرصة، التي تتميز بقنوات الري المعتمدة على انحدارية الأرض، وكذلك بمعابرها المرتفعة عن مستوى الأرض، والصهريج المبني بملاط كلسي غير منفذ للماء، يتم تزويده بالماء عن طريق الناعورة (اللوحة الفنية: 9)[1]، التي تُستخدم لرفع المياه من مستوى منخفض إلى مستوى أعلى، عبر عجلة مثبتة على حامل، وذات أوعية تغطس داخل صهريج، تحمل الماء معها وترفعه عاليا عند دورانها [2].

خاتمة:

استقطبت عمارة الفحص العديد من أثرياء المدينة لتمضية العطل الصيفية بها، وهذا لعدة مزايا أهمها طبيعة أراضي الفحص الخلابة، التي تبث في النفس بهجة وراحة، كما أن لكثرة أشجارها ووفرة مياهها وقربها من ساحل البحر الأثر الكبير في توفير جو منعش في الأيام الصيفية الحارة، وكسر رتابة الحياة اليومية في المدينة، حيث يجد سكانها فضاء للتسلية وتمضية الوقت في أعمال البستنة والاهتمام بالدار[3]، كما تتمتع النساء بحرية أكبر في ملكيات العائلة الخاصة[4]، كما تُساهم وفرة المحاصيل نظرا لجودة أراضي الفحص في تحقيق الاكتفاء الذاتي

---

[1] باكار (أندريه)، المرجع السابق، ص. 83.

[2] Marçais (G.) ; L'architecture…, p. 445.

[3] وليام(شالر)،المصدر السابق، ص. 88.

[4] Golvin (L.) ; Op. Cit, p. 127

لمُلاّك هذه الأراضي وتوفير مدخول إضافي لهم. برزت بالفحص مبان عديدة عدا الديار، تستحق دراسات مفصلة نظرا لأهميتها، مثل قناطر المياه والعيون ومقاهي المسافرين لوفرة المياه بالمنطقة، وأضرحة الأولياء الصالحين، وكذلك الأفران (اللوحة الفنية: 10) الخاصة بحرق مواد البناء نظرا لوفرة الحاجر وغيرها.

لا يمكن حصر ديار الفحص في مخطط موحد، فحرية تخطيط الدار وشساعة المساحة وطبيعة الموقع الذي بنيت فيه، والطبيعة الخلابة المحيطة بها، وثراء ملاكها واختلاف أصولهم، جعلتها تنفرد عن نظيراتها ليس فقط عن منازل المدينة فقط، بل عن ديار الفحص بحد ذاتها، مما يستوجب دراسة كل دار كحالة خاصة، واستنباط كل العناصر المختلفة والدخيلة كذلك حالة بحالة. يجب دراسة هذا النمط المعماري بشكل أفضل لفهمه وإبرازه، نظرا للأهمية الكبيرة التي يكتسيها، باعتباره عمارة راقية خاصة بالأثرياء في فترة عرفت فيها مدينة الجزائر أوج تطورها وشهرتها.

ملاحق الأشكال واللوحات الفنية:

الأشكال:

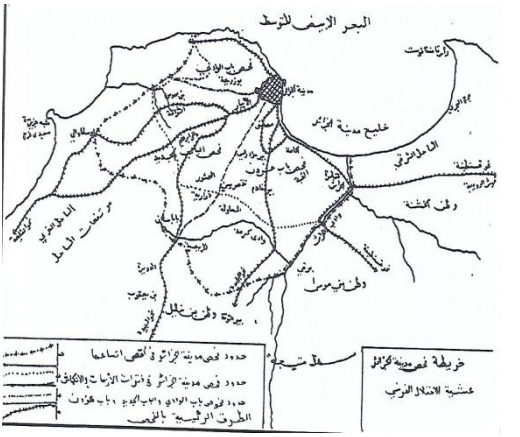

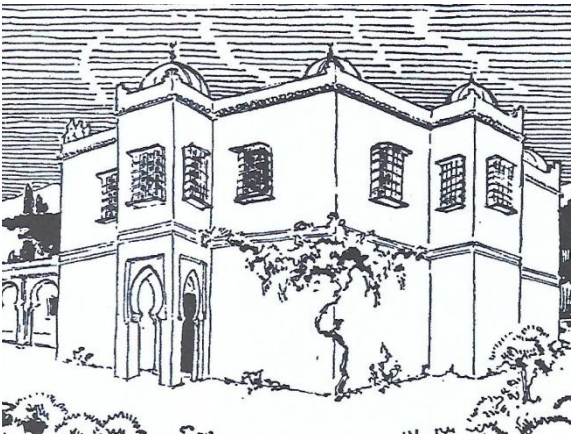

الشكل1: فحص مدينة الجزائر (ناصر الدين سعيدوني) الشكل2: مسكن ديار الفحص(.G Marçais)

اللوحات الفنية:

اللوحة ال فنية1: مدينة الجزائر (متحف الفنون الجميلة الجزائر) اللوحة ال فنية2: أراضي الفحص (المكتبة الوطنية)

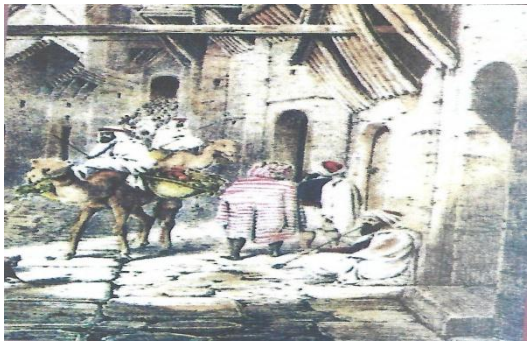

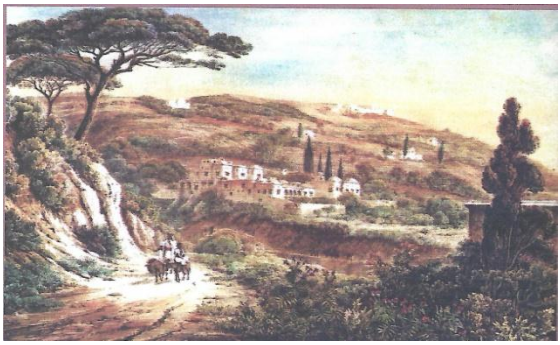

اللوحة ال فنية3: أزقة مدينة الجزائر (المكتبة الوطنية) اللوحة ال فنية4: ديار الفحص (المكتبة الوطنية)

اللوحة الفنية5: الرواق الخارجي (Marion V.B.)

اللوحة الفنية6: قُبو ديار الفحص (متحف الفنون الجميلة)

اللوحة الفنية7: مدخل مسكن الفحص (نضيرة عقون) اللوحة الفنية 8: رياض الفحص (Marion V.B.)

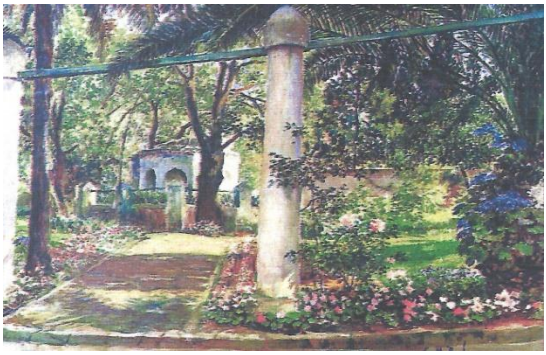

اللوحة الفنية 9: ممر ناعورة جنان مريم (Marion V.B.) اللوحة الفنية 10: فرن حرق الجير (المكتبة الوطنية)